

تحلي أفراد المجتمع المسلم بالخلق الحسن



«نتفق جميعاً على أن الأخلاق الحسنة لازمة للمجتمع السعيد، وانّها بمنزلة القلب والضمير إلى جانب العقل والتفكير، وأن التطور التقني والفتوحات العلمية لن تعمّ الجميع إلا من خلال منظومة القيم الأخلاقية، بيد أنّنا نختلف في كيفية وقوف هذه القيم على أرض الواقع، كما تقف القيم المادية اليوم وبقوة.

الباحثون في شأن السيرة النبوية، وأيضاً سيرة الأئمة المعصومين، والأولياء الصالحين، ليس فقط يكشفون الوجه الأبرز من حياتهم المليئة بالمكارم والفضائل بما يسع العالم، وليس فقط أبناء قومهم في فترات حياتهم، إنّما يسלטون الضوء أيضاً إلى الوجه الآخر لسيرتهم وكيف أوجدوا المصايق العملية للأخلاق في مجتمعاتهم، بل وكيف شقوا طريق الأخلاق وسط جذب النفوس وتمردها على الأخلاق وكلّ ما يلزم الإنسان من أحكام وأخلاق وآداب.

إنّ الابتسامة مقابل جذب رداء النبي بعنف، ومعها المناداة بـ"اخرج الينا يا محمد...!" أو الابتسامة أمام من يكيل الشتم والافتام لأمر المؤمنين، وسيد الوصيين، أمام ولده الحسن، وهو يعيش الأيام الأولى لفقد أبيه، وغيرها من المواقف المماثلة، لم تكن عجزاً عن مواجهة الطرف المقابل بشكل حازم وقاطع، ومطالبته بتحسين الالفاظ واحترام الآخرين، كما قد يصدق للكثير منّا في موقف مماثل، إنّما التسامي على الجراح وقدرة على الاستيعاب لتقديم الصورة المغايرة لما عليه الناس من السلوك غير الحسن، هو الذي وفر لنا كلّ هذا الإرث العظيم من مواقف أخلاقية نطالعها في الكتب ونقف أمامها بغير قليل من الإعجاب.

في دعاء مكارم الأخلاق للإمام السجاد (ع)، يدعو [] سبحانه وتعالى بأن "سددي لأن اعارض من غشني بالنصح، وأجزني من هجرني بالبر، وأثيب من حرمني بالبذل، وأكافئ من قطعني بالصلّة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن اشكر الحسنة وأغضّ عن السيئة". بما يعني أن التحلّي بالأخلاق الحميدة تحتاج لثمن باهض، وهو ليس بمستحيل قطعاً لطالبه، وهل عجز الإنسان يوماً أمام العلم والمعرفة؟

فالتوصل إلى الحقائق العلمية والمكتشفات والاختراعات لم تكلف أصحابها جهداً عضلياً وذهنياً خاصاً بهم بين جدران بيوتهم فقط، بل تعدى في كثير من الأحيان إلى تحديات ماحقة تعرضوا لها من المحيط العلمي ثم الاجتماعي وحتى السياسي كما حصل للعلماء الذين اصطدموا بسلطة الكنيسة في سالف الزمان وما جرى عليهم من التنكيل والقتل بأبشع الصور.

وبما أن التحليّ بالأخلاق الحسنة هي مسألة نفسية، فإنّ اتخاذ الموقف الايجابي إزاء الموقف السلبي في العلاقات البينية والاجتماعية، يتطلب قدراً كبيراً من الاستيعاب والتفهّم، وإلا لن يكون للأخلاق مكانة في العلاقات الاجتماعية مطلقاً، وهذا يعني -فيما يعنيه- أن يكون الإنسان متسلحاً بقوة النفس والشجاعة ليكون مؤهلاً للتحليّ بالأخلاق الحسنة، ومن الأمثلة على ذلك؛ مطالبة البعض بأن يكون الطرف الآخر هو المبادر للصلح والتنازل عما بدر من خطأ أو تجاوز يتهم الجانبان إن الآخر هو البادئ، وفي أبسط الامور؛ نلاحظ حالة سائدة بأنّ البعض يتوقع ممن يصادفه في الطريق أو مكان عمله، بأن يكون هو المبادر لأداء التحية والسلام!

هذه ربما من الأمور البسيطة في حياتنا اليومية، ولكنها تمثل -مع سلسلة من المفردات اليومية- المنظومة الأخلاقية التي تضمن أمن واستقرار المجتمع، وتضخ الدفء في العلاقات البينية والاجتماعية، انطلاقاً من داخل الاسرة ومروراً بالمجتمع، وحتى العلاقة بين عامة الناس والمسؤول في الدولة.

إذا اردنا للصفات الحسنة أن تسود في العلاقات فيما بيننا علينا الاستعداد أولاً؛ لتحمل ثمن سيادة هذه الأخلاق في تعاملاتنا اليومية، ثم تجاوز الإطار الذاتي المقدس لدى الكثير وأنّه يختلف عن الآخرين في فهمه وعلمه وثقافته، والتطلع إلى عامة الناس على أنّهم جزء منهم، وهكذا كان الأنبياء والأئمة والمصلحون، مع الالتزام بالمبدأ الأساس الذي ثبته أمير المؤمنين (ع) بأن "كن في الناس ولا تكن منهم"، أي ليس بالضرورة أن يتبنى سلوكهم وافكارهم، بل يقدم لهم البديل الأفضل مهما كلفه ذلك من الصمت أمام الاستفزاز والنكران والخذلان، إلا ان النتيجة تكون باهرة لأن (العاقبة للمتقين)، وهكذا فعل الأنبياء، لاسيما النبي الأكرم، والأئمة من بعده، والأولياء الصالحين، صبروا أياماً فلائل ثم زرعوا الأخلاق الحميدة ليخلفوا للأجيال على طول الزمن، إرثاً حضارياً راقياً. ▶